رواية

خفقان

للقلبِ مرفأٌ أخير...

لَيْسَ كُلُّ وداعٍ خَسارَةً، أَحيانًا يَكُونُ آخِرَ أَبْوابِ السَّلامِ.

أُسامة قائد عبدالله

2026م

فآن

روايــة

أسامة قائد عبدالله

© جميع الحقوق محفوظة لمجلة نور الثقافية.
عنوان الكتاب: فـــآن .. للقلب مرفأ أخير
نوع الإصدار: رواية
الناشر الإلكتروني: مجلة نور الثقافية.
رقم الاعتماد الدولي:Daan-A-25-000187
إشراف عام ورئاسة التحرير:Abeer Aladdad

للمتابعة والتواصل:
فيسبوك:https://www.facebook.com/profile.php?id=61562163452
الموقع الإلكتروني:https://noorislal.blogspot.com/

يسمح بنشر محتوى المجلة بأي شكل من أشكال النشر الإلكتروني مع ذكر المصدر: #اسم الكتاب والناشر(مجلة نور الثقافية) واسم الكاتب
ولا يجوز اقتباس أي جزء من محتوى المجلة بهدف الإساءة
أو إعادة إنتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة إدارة المجلة.
إن الآراء الواردة في المجلة تعبر عن أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي مجلة نور الثقافية.

الإهداء

الي كلِ من عاش هذه التجربة،

الي كلِ قلبٍ أحب بصدقٍ، ثم وجد نفسه وحيدًا في منتصفِ الطريق،

الي الذين افترقوا، ولم يخرجوا تمامًا من بعضهم،

الي الذين تعلموا كيف يبتسمون أمام العالم، بينما كانت أرواحهم ترتِب خرابها بصمتٍ،

الي الذين مر الحب في حياتِهم مرةً، فلم يعد بعده شيءٌ كما كان.

الي كلِ من عرف أن الفقد لا يكون دائمًا موتًا أو غيابًا،بل قد يكون حياةً كاملةً تمضي في اتجاهٍ آخر، غيرِ الذي تمناه القلب.

الي من ما زالوا يحملون في داخلِهم أسئلةً مؤجلةً،

وذكرياتٍ لا تشيخ، وأسماءً كلما مرت في الخاطر اهتز لها شيءٌ عميقٌ لا يراه أحد.

الي الذين فهموا متأخرًا أن بعض البشر لا يرحلون حين يرحلون، ولا يغيبون حين يغيبون؛ لأن حضورهم الحقيقي يبدأ حين يصبح الوصول إليهم مستحيلًا.

والي بطلِ هذه الرواية، صفوان،

الي صديقي الذي لم يكن في الحكايةِ مجرد اسمٍ، بل كان قلبًا حمل من الحبِ صدقه،ومن الفقدِ ثِقله، ومن الصمتِ وجعه، ثم مضى في الطريق بما يكفي من الكسر،وما يكفي من الكبرياء.

إليك يا صفوان، لأن بعض الأرواح لا تكتب الحكاية عنها فقط، بل تكتب الحكاية بها.

والي كلِ من أحب مرةً، فصار بعد الحبِ أكثر عمقًا، وأكثر هشاشةً، وأكثر إنسانيةً.

مدخل الرواية

ليست كل الحكاياتِ تكتب لتعيد ما ضاع، بعضها يكتب فقط لكي يمنح الوجع اسمًا، ويمنح القلب المتعب فرصةً أخيرةً ليفهم ما الذي جرى له، ولماذا بقي بعض الناسِ في الروح بعد أن غابوا عن الحياة. هذه الرِواية ليست عن حبٍ انتهى، بل عن حبٍ لم يجد نهايته الكاملة، فبقي معلقًا بين الذِكرى والغياب، بين ما عِشناه حقًا، وما كان يمكن أن نعيشه لو أن الأيام كانت أقل قسوة،ولو أننا كنا أشجع قليلًا، أو أصدق مع خوفِنا، أو أقل ميلًا إلى الصمت حين كان الكلام نجاة.

"*فآن*"،الأسم الذي حوى أسمين فاكِ ونوني وربط الحب بينهما بألفه "**فآن**"

هي حكاية قلبينِ التقيا في الزمنِ الخطأ، فعرفا من الصِدق ما يكفي ليضيئا بعضهما، وعرفا من العجز ما يكفي ليفترقا. هي روايةٌ عن ذلك الأثرِ الذي لا يزول، عن الأشخاصِ الذين لا يغادروننا تمامًا،

لأنهم حين رحلوا تركوا شيئًا منهم فينا، وأخذوا شيئًا منا معهم. في هذه الصفحات، ليس الفقد مجرد غياب، ولا اللِقاء مجرد مصادفة، ولا النِسيان خ لاصًا كاملًا. فهناك حبٌ لا ينتهي حين ينتهي،

بل يتبدل شكله فقط، ويتعلم كيف يسكن بصمت، كيف يختبئ في زاويةٍ بعيدةٍ من الروح، ثم يعود أحيانًا على هيئةِ أغنية، أو شارع، أو مساءٍ طويل، أو ارتباكٍ لا سبب ظاهرًا له، إلا أن القلب تذكر فجأةً ما حاول العمر كله أن يروضه.

هذه رواية الذين مشوا في الحياةِ بوجوهٍ هادئة،

وقلوبهم تضج بما لا يقال، الذين تعلموا كيف يبتسمون حين يكون البكاء أكثر صدقًا، الذين نجوا في الظاهر، لكن شيئًا ما في داخلِهم بقي واقفًا عند لحظةٍ قديمة لم تكتمل كما يجب. هي ليست روايةً عن الانتصار، بل عن النجاةِ الممكنة،

عن السلامِ الذي يأتي متأخِرًا، عن الاعترافِ الذي لا يغير الماضي لكنه يخفِف ثقله،

وعن الحقيقةِ المرةِ الجميلةِ معًا:

أن بعض التجاربِ لا تأتي لتبقى في حياتنا، بل لتبقى فينا.

فإن وجدت نفسك هنا، بين سطرٍ وآخر، أو رأيت ملامحك في هذا الحنين، أو سمعت في الكلماتِ صدى خسارةٍ قديمة، لم تتعلم بعد كيف تسميها، فاعلم أن هذه الرواية كتبت لك أيضًا،

لكلِ قلبٍ عرف الحب ذات صدق، ثم عرف كيف يكمِل عمره بشيءٍ من الكرامة، وكثيرٍ من الحنين.

يمر الوقت؛ ليس لأنه رحيم، بل لأنه لا يعرف كيف يتوقف لأجل قلبين تعثرا في منتصف الطريق. يمر كما تمر الأشياء كلها: باردًا من الخارج، وقاسيًا من الداخل. يمر ولم ير ارتباكنا يومًا، ولم يسمع ذلك الوجع الذي كنا نخفيه خلف الصمت. يمر ونحن معه، نبدو للناس أكثر تماسكًا، ونبدو لأنفسنا أكثر تعبًا. نمشي كثيرًا ونتعثر كثيرًا، ونتعلم كيف نبتسم في المواضع التي كان البكاء فيها أكثر صدقًا.

سيأتي يوم تصبحين فيه في جهة، وأصبح أنا في جهة أخرى. لكِ مدينة تعرفكِ، ولي مدينة أتظاهر أنني أعرفها. لكِ بيت يفتح بابه على تفاصيل جديدة، ولي بيت يغلق علي أشياء قديمة لم تخرج مني تمامًا. لكِ صباح يراكِ كما صرتِ، ولي مساء يعيدني سرًا الي ما كنت. سنعيش، نعم سنعيش، لكننا لن نعيش بالطريقة التي رسمناها ذات حلم. لن تكون الحياة كما تخيلناها على مهل، حين كنا نظن أن القلوب إذا صدقت، كفاها صدقها لتنتصر.

سنفهم متأخرين أن الحياة لا تسير دائمًا مع الأكثر حبًا، بل مع الأكثر قدرة على الاحتمال. ستكون أيامنا مرتبة من بعيد، فوضوية من قريب. هادئة في الظاهر، صاخبة في الداخل. سنضحك في الصور، ونصمت خارجها. سنقول إننا بخير، مع أن الخير أحيانًا لا يكون إلا اسمًا لوجع تعلم كيف يلبس ثياب الهدوء. سنعتاد الوجوه الجديدة، والأماكن الجديدة، والعادات الجديدة. لكن القلب، مهما بدا مطيعًا، سيبقى فيه شيء عصي، شيء لا يلين بسهولة، ولا يرضى بأي بديل. سيكون الي جوارك شخص آخر، وسيكون الي جواري شخص آخر. أشخاص طيبون ربما، يعرفون كيف يشاركوننا أيام الحياة، وكيف يخففون عنا تعبها. لكنهم لن يعرفوا كيف عبرت أرواحنا من بعضها

ذات مرة، ولا كيف كان مجرد وجودكِ في العالم يكفي ليهدئ الفوضى كلها في داخلي. سيحبنا هؤلاء بطريقتهم، ونبادلهم الرفق بطريقتنا. لكن بين الحب والرفق مسافة لا يراها إلا من عرف المعنيين؛ فالرفق يخفف التعب، أما الحب فيعرف من أين جاء التعب أصلًا.

سنكبر، وسيقول الناس إننا نضجنا. لكن النضج ليس دائمًا شفاءً، أحيانًا يكون شكلًا مهذبًا من أشكال الانكسار. أحيانًا يكون هو أن تعرف تمامًا ما خسرته، ثم تتعلم كيف تجلس أمام الناس وكأنك لم تخسر شيئًا. سنصبح أهدأ، لكن ليس لأن العاصفة انتهت، بل لأنها استقرت في الداخل وأصبحت تعرف كيف تدور بصمت. سنصبح أكثر حكمة، لكن ليس لأننا نجونا، بل لأننا تعبنا بما يكفي، فصرنا نخاف من الاندفاع، كما لو أن القلب تعلم أخيرًا أن بعض الخطوات مهما كانت صادقة، قد تقود الي هاوية لا قرار لها. وربما، بعد أعوام طويلة، يجمعنا مكان عابر، بلا موعد، ولا تمهيد، ولا رحمة تليق بهذا كله. ربما شارع مزدحم، أو مقهى عادي، أو لحظة ضيقة تمر على الناس بلا أثر، وتمر علينا كزلزال كامل. سأراكِ ، فلا أعرفكِ من ملامحكِ فقط، بل من ذلك الارتباك الذي يسبق النظر، من تلك الرعشة الخفيفة التي لا يراها أحد، من سكون مفاجئ يقطع داخلي دفعة واحدة. وسوف تريننني، لا كما كنتِ، بل كما فعلت بي الأيام: أكثر هدوءًا، وأقل ضجيجًا، وأقسى من الخارج، وأوهن من الداخل، كمن تعلم أن يخفي كسوره لا أن يصلحها. سنقف لحظة، قصيرة في الزمن، طويلة في الإحساس. ثم نبتسم، تلك الابتسامة التي لا هي فرح كامل ولا حزن كامل، لا هي لقاء صريح ولا وداع صريح. ابتسامة بين بين، تشبه مساءً متأخرًا، لا هو نهار واضح ولا ليل مكتمل.

سنقول كلمات قليلة: كيف أنتِ؟ بخير. وأنت؟ بخير أيضًا. كلمات صغيرة جدًا، لكنها ستعبر فوق سنوات كاملة، فوق وجع طويل، وفوق أسئلة كثيرة لم تجد جوابًا. سنقولها كما يقولها الغرباء، مع أن داخل كل منا كلامًا لو خرج لاهتز له كل ما بنيناه بعد الفراق. سنعرف في تلك اللحظة أننا لم نتجاوز كما كنا نزعم، بل فقط تعلمنا كيف نخفي الندبة. وأن النسيان لم يكن نسيانًا، بل كان تأجيلًا طويلًا للتذكر. وأن البعد لم يقتل ما كان، لكنه غير هيئته فقط، جعله أكثر صمتًا، وأكثر رسوخًا، أقل ظهورًا، وأشد عمقًا. سأفهم أنني ابتعدت عنكِ في الطريق، لكنني لم أبتعد عنكِ في الروح. وستفهمين أن الحياة رتبت كل شيء حولكِ، وأبقت داخلكِ زاوية صغيرة من الفوضى باسمي. سنفهم، متأخرين كعادتنا، أن بعض البشر لا يرحلون حين يرحلون، ولا يغيبون حين

يغيبون، ولا تنتهي قصتهم بانتهاء اللقاء، بل يبدأ حضورهم الحقيقي حين يصبح الوصول إليهم مستحيلًا. ثم سنفترق من جديد، كل منا الي جهته: أنتِ الي عالمك، وأنا الي عالمي. لكن شيئًا منا سيبقى هناك، في مكان اللقاء، كأن أرواحنا تأخرت عنا، أو كأن قلوبنا رفضت أن تغادر بالمقدار نفسه من الطاعة. ستدخلين بيتك، وأدخل بيتي. لكن البيت في تلك الليلة لن يكون بيتًا كاملًا، بل مكانًا واسعًا لذكرى ضيقة قررت أن تتمدد في كل شيء.

ستجلسين بين من يحبكِ، وأجلس بين من يألفني. ومع ذلك، سنعرف وحدة خفية لا سبب ظاهرًا لها، إلا أن الماضي مر من أمامنا، ولمسنا بخفة، ثم تركنا مرتبكين كما لو أن الفقد حدث الآن. وسيستمر كل شيء بعد ذلك كما لو أن شيئًا لم يكن. ستعود الأيام الي ترتيبها، والأعمال الي ثقلها، و الوجوه الي عاداتها، والكلام الي سطوحه المعتادة. لكن في الداخل لن يعود شيء كما كان قبل تلك المصادفة، كأن اللقاء لم يفتح جرحًا جديدًا، بل أيقظ جرحًا قديمًا كان نائمًا لا ميتًا. وهنا تبلغ المفارقة أشدها؛ فالذي حسبناه انتهى كان فقط صامتًا، والذي ظنناه خفت كان يزداد رسوخًا في العتمة، و الذي بدا بعيدًا في الحياة كان أقرب ما يكون في الذاكرة. سنحاول أن نكون منصفين مع من حولنا، وسننجح أحيانًا. لكن الحقيقة التي لا تقال بسهولة أن أول من مس الروح بصدق لا يخرج منها تمامًا. قد تخف صورته، قد تتبدل ملامحه، قد يبتعد صوته، لكن أثره يبقى في ذلك المكان العميق الذي لا يصل إليه أحد بسهولة. الحياة قد تعطي بعده أمانًا آخر، ورفقة أخرى، وأيامًا أكثر هدوءًا. لكنها لا تعيد الطريقة نفسها التي خفق بها القلب أول مرة على حقيقته؛ فالبدايات الصادقة لا تتكرر كما هي، والرجفة الأولى لا تعود بـ الملامح ذاتها، وأول من سكن الروح يبقى فيها بمعنى لا ينافسه أحد.

سيأتي علينا موسم نضحك فيه كثيرًا، ثم موسم نصمت فيه أكثر. موسم نظن فيه أننا نسينا، ثم تفضحنا أغنية، أو رائحة، أو شارع، أو كلمة عابرة، فتفتح فينا مدينة كاملة من الذكريات. وهكذا سنبقى: ننسى ونتذكر، نهدأ ونرتبك، نقترب ونبتعد، نشفى ونتألم، ننجو ونفقد. كأن ما مر بيننا علمنا المتضادات كلها، ثم تركنا نعيشها معًا في قلب واحد.

سأفهم بعد زمن أنكِ كنتِ الغياب الأكثر حضورًا، والبعد الأقرب، والصمت الأ كثر ضجيجًا، والذكرى الأكثر حياة. وستفهمين ربما أنني لم أكن عابرًا كما بدا ، ولا مجرد فصل قديم طوته الأيام كما تطوي دفاترها القديمة، بل كنتِ تلك الفجوة الصغيرة التي كلما ظنت الحياة أنها سوتها، عاد شيء ما ليذكركِ أنها

ما زالت هناك، هادئة نعم، لكنها لم تلتئم تمامًا.

سيقول الناس إن الإنسان يتبدل، وهذا صحيح. لكنهم لا يقولون دائمًا إن بعض ما يمر به الإنسان يبقى هو الجزء الذي لم يتبدل فيه أبدًا. نحن لا نخرج من الحب كما دخلناه، ولا نغادر الخسارة كما كنا قبلها، ولا نعبر الصدق الكبير ثم نعود عاديين. شيء ما فينا يظل هناك، في منتصف الطريق، عند اللحظة التي كانت قادرة إما أن تصنع عمرًا كاملًا، أو تترك عمرًا كاملًا يتيه بعدها.

ولهذا، مهما امتدت بنا الحياة، ومهما أحسنا لبس أدوارنا الجديدة، ومهما أقنعنا أنفسنا أن كل شيء أصبح في مكانه الصحيح، سيبقى في الداخل سؤال لا يشيخ: ماذا لو؟ ماذا لو جاءت الأيام أقل قسوة؟ ماذا لو كنا أقل خوفًا؟ ماذا لو منحنا الحلم فرصة أطول؟ ماذا لو لم نتعب في الوقت الخطأ ؟ ماذا لو لم نظن أن الصمت حكمة، وأن البعد حل، وأن الكبرياء نجاة؟ لكن هذا السؤال، مع كل ما فيه من وجع، لن يغير شيئًا. سيظل معلقًا في سقف الروح كقنديل خافت، لا يضيء الطريق كاملًا، ولا ينطفئ.

وفي النهاية، لن نكره ما كان، مع أنه أوجعنا. ولن نندم عليه تمامًا، مع أنه أخذ منا أكثر مما رد. سننظر إليه كما ينظر الإنسان الي أجمل ما انكسر، بمحبة لا تنكر الكسر، وبأسى لا يفسد الجمال. سنفهم أن بعض التجارب لم تأتِ لتبقى في حياتنا، بل لتبقى فينا. وهذا هو الفرق كله؛ فما يبقى في الحياة قد يتبدل، أما ما يبقى في الداخل فنادر جدًا أن يشيخ.

ستمر السنون، وتتغير الوجوه، والمدن، والأصوات، والبيوت، والأولويات، وحتى النسخ التي نظن أننا اصبحناها من أنفسنا. لكن حقيقة واحدة ستظل ثابتة، واضحة كجرح قديم، ومبهمة كقدر لا يفسر نفسه: أننا أحببنا مرة بصدق، والصدق الأول لا يمحى. لا لأنه أقوى من كل شيء، بل لأنه يدخل الروح بلا استئذان، ثم يقيم فيها على هيئة أثر لا يغادرها مهما غاب صاحبه.

لذلك، حين يقال لنا بعد زمن طويل إن الحياة مضت، سنومئ برأسنا ونبتسم. لأن الحياة فعلًا مضت، لكن شيئًا أدق من الحياة، وأعمق من الوقت، سيبقى شاهدًا في الداخل على أننا في لحظة ما لم نكن شخصين عابرين في هذا العالم، بل كنا وطنين ضاع كل منهما عن الآخر، ثم قضيا ما تبقى من العمر يحاولان أن يعيشا في المنافي بشيء من الكرامة وكثير من الحنين.

وإذا كانت هناك حقيقة أخيرة تبقى بعد كل هذا الركام، فهي أن بعض الحب لا ينتهي لأنه لا يجد نهاية، ولا يشفى منه القلب لأنه لم يكن علة، ولا ينساه ا لإنسان لأنه لم يكن حدثًا عابرًا، بل كان عمرًا كاملًا مضغوطًا في شعور واحد. كان فرحًا وخوفًا، قربًا وبعدًا، نورًا وعتمة، سكينة وقلقًا، اكتمالًا ونقصًا، بدءًا ونهاية. ثم، على الرغم من كل هذا التناقض، كان أصدق ما مر بنا. وما كان صادقًا الي هذا الحد لا يختفي، هو فقط يتعلم كيف يسكن بصمت.

بعد ذلك اللقاء، لم يعد العالم كما كان. لا لأن شيئًا ظاهرًا تبدل، بل لأن شيئًا داخليًا انكسر مرة أخرى، بهدوء هذه المرة، وبدقة أكثر إيلامًا. عدت يومها الي البيت كما يعود إنسان من مدينة احترقت، من غير نار ومن غير دخان، لكن برائحة الخسارة نفسها. فتحت الباب، دخلت، وضعت مفاتيحي في مكانها المعتاد، نزعت معطفي ببطء، وجلست على أول كرسي صادفني، كأنني لم أدخل بيتي، بل دخلت الي تلك اللحظة كلها وتركتها تجلس معي.

كان الليل قد بدأ عاديًا جدًا، على نحو يثير الغضب. النافذة نصف مفتوحة، والشارع في الخارج يمضي على عادته. السيارات تعبر، وصوت بعيد لبائع متأخر، وضوء أصفر يتسلل من عمود الكهرباء المقابل. كل شيء ثابت في مكانه، إلا أنا.

كنت أشعر أن شيئًا ما قد عاد من بعيد، لا ليعيدكِ الي حياتي، بل ليعيد فقدكِ الي قلبي. وهناك فرق موجع بين الأمرين؛ فالأول يوقظ الأمنيات، أما الثاني فيوقظ الحقيقة.

وحقيقة تلك الليلة أنني لم أكن قويًا كما ظننت، ولا متجاوزًا كما أقنعت نفسي طويلًا. كنت فقط ماهرًا في دفن الأشياء، حتى جاء وجهكِ من جديد ونزع التراب كله دفعة واحدة.

قضيت الليل أمشي في الغرفة، من طرف الي طرف، كما لو أن الحركة قد تنقذني من التفكير. لكن التفكير لم يكن في الرأس فقط، كان في اليدين، في الصدر، في العينين، في ذلك الثقل الغريب الذي يجعل الجسد كله يشارك الروح انكسارها. جلست قرب النافذة، وأخذت أنظر الي الشارع، ليس لشيء بعينه، بل لأن النظر الي الخارج كان أسهل من النظر الي الداخل. وفي كل دقيقة كنت أستعيد تفاصيلكِ، لا كما رأيتكِ قبل سنوات، بل كما رأيتكِ اليوم: أكثر هدوءًا، أكثر اتزانًا، وأكثر بعدًا. كأنكِ عبرتِ عمرًا كاملًا، وعبرتِ معه كل تلك الفوضى التي ما زالت تسكنني.

سألت نفسي كثيرًا: هل كنتِ سعيدة؟ هل كان في عينيكِ شيء من السلام؟ أم أنني فقط أردت أن أراه؟ هل بدوت لكِ غريبًا؟ أم بدوت كفصل قديم تعرفين جيدًا أنه كان جميلًا، لكن لا سبيل للعودة إليه؟

لم تكن المشكلة في أنني لم أجد جوابًا، بل في أنني وجدت أسئلة أكثر مما ينبغي. وكل سؤال منها كان يفتح بابًا على غرفة قديمة في روحي، غرفة ظننت أنني أغلقتها، ثم اكتشفت أن الأبواب القديمة لا تغلق حقًا، هي فقط تتعب من الطرق وتصمت. في تلك الليلة، مددت يدي الي دفتر قديم لم أفتحه منذ شهور، وكتبت اسمنا المشترك "**فان**" مرة واحدة فقط، ثم توقفت. وبقي الاسم أمامي كما لو أنه ليس حروفًا، بل باب كامل، باب يؤدي الي كل ما حاولت نسيانه، والي كل ما فشلت في نسيانه. لم أكتب رسالة، ولم أقل شيئًا كبيرًا، فقط بقيت أنظر الي الاسم وأشعر أن الإنسان قد يهزمه أحيانًا مجرد اسم، إذا كان الاسم يحمل خلفه عمرين: العمر الذي عاشه، و العمر الذي لم يعشه.

بعد ساعات طويلة، أويت الي فراشي، لكن النوم لم يأتِ. كنت كلما أغمضت عيني رأيتكِ في تلك اللحظة: في الشارع، في المسافة القصيرة بيننا، في تلك النظرة التي كانت أكبر من الكلام، وأوسع من الغياب، وأصدق من كل الجمل المهذبة التي قلناها. أكثر ما قتلني أنكِ كنتِ قريبة جدًا وبعيدة جدًا في الوقت نفسه. وما أقسى أن يكون الإنسان على بعد خطوات من شيء يحبه، وعلى بعد عمر كامل منه. عند الفجر، نهضت من الفراش، وجلست على حافة السرير، وشعرت بتلك الوحشة التي لا تشبه الوحدة؛ فالوحدة قد يعالجها صوت، أو حضور، أو زيارة عابرة. أما الوحشة التي جاءتني يومها فكانت أعمق من ذلك، كانت وحشة إنسان عاد الي نفسه. ما زالت مفتوحة على الريح.

مر اليوم التالي ثقيلًا، والذي بعده أثقل. كنت أقوم بما يجب علي فعله: أتحدث مع الناس، أرد على الأسئلة، أتظاهر بالانتباه. لكن في الحقيقة، كنت غائبًا عن كل شيء، كأنني أسير في أيامي ولا ألمسها. كان اسم "فان" يمر في خاطري بلا استئذان: في منتصف عمل، في أثناء حديث، عند شرب الماء ، في جلسة قات، قبل النوم، بعد الاستيقاظ. وكان غريبًا كيف يمكن لشخص لا يحضر في يومك أن يحتل هذا القدر من يومك. مرت أيام قليلة، ثم أصبح اللقاء جزءًا من ذاكرتي الجديدة، لا القديمة. وهنا أدركت الألم بشكل أوضح؛ فأنتِ لم تعودي ذكرى بعيدة فقط، لقد صرتِ جرحًا متجددًا له ملا

امح الحاضر.

كنت أقول لنفسي: ربما يهدأ هذا كله بعد حين. لكنني كنت أعرف في داخلي أن بعض الأشياء لا تهدأ لأن الوقت مر، بل لأن القلب يتعب من النزف. وهذا تعب ليس شفاءً.

في مساء لاحق، عدت الي الشارع نفسه، لا عن قصد واضح، أو ربما بقصد لم أعترف به. مشيت في المكان الذي رأيتكِ فيه، وتوقفت في الموضع نفسه تقريبًا، ونظرت الي الناس وهم يعبرون. غريب كيف يمر البشر في أماكن تحمل لبعضهم زلازل كاملة ولا يشعرون بشيء.

وقفت هناك طويلًا، كأنني أنتظر شيئًا لا أملكه. ثم فهمت فجأة أنني لم أكن أنتظركِ، بل كنت أنتظر نفسي القديمة التي سقطت في تلك اللحظة ولم تنهض كما كانت.

عدت ومضيت في أيامي، لكن أيامي نفسها أصبحت تنظر إلي بعين مختلفة. كل شيء بعد ذلك اللقاء أصبح يقاس عليه: الهدوء، الصمت، الليل، الطرقات، رائحة الشتاء، الأغنيات التي كنا نمر بها عرضًا، الأماكن التي لم نزورها معًا لكنها تشبهنا على نحو لا تفسير له.

ثم بدأت الرسائل الداخلية، ذلك النوع من الكلام الذي لا يكتب ولا يقال، بل يظل يدور في القلب كمن يدور حول بيت قديم ويعرف أنه لن يدخله.

كنت أكلمكِ في داخلي كثيرًا، أكثر مما كلمتكِ في الواقع كله. أقول لكِ أشياء متأخرة، أشياء كان ينبغي أن تسمعيها في وقت آخر. أقول إنني لم أكن باردًا كما ظننت، بل كنت خائفًا. وإنني لم أصمت لأنني لا أملك الكلام، بل لأن الكلام في بعض اللحظات كان يبدو لي اعترافًا بالعجز. وكنت شابًا بما يكفي لأخلط بين العجز والكبرياء.

أقول لكِ إنني حين ابتعدت، لم أكن أريد النجاة منكِ، بل من وجعي معكِ. لكنني لم أنتبه وقتها أن بعض النجاة تكون شكلًا آخر للهلاك.

أقول لكِ إنني لم أجد بعدكِ تلك الطمأنينة التي كانت تهبط على روحي لمجرد أنني أعرف أنكِ هنا، في مكان ما من هذا العالم. وإنني جربت أن أعيش بطريقة عاقلة، مرتبطة، متزنة، تليق بما يسميه الناس نضجًا. لكن شيئًا ما في قلبي ظل يرفض أن يسمي هذا كله حياة كاملة.

وأحيانًا، كنت أغضب منكِ، لا منكِ أنتِ وحدكِ، بل من حضوركِ الذي يصر على البقاء، من هذا الأثر الذي لم يرض أن يكون ماضيًا مهذبًا، من قدرتكِ الغريبة على أن تعودي بكامل قوتكِ من مجرد نظرة عابرة.

ثم أخجل من غضبي، لأنكِ لم تفعلي شيئًا يومها سوى أنكِ مررتِ من أمامي، والقلب هو الذي اختار أن ينهار مرة أخرى.

مرت الشهور، وشيئًا فشيئًا، تعلمت كيف أحمل هذا اللقاء كما حملت الفراق قبله، لا بنسيانه، بل بأنقله الي مكان أكثر عمقًا، حيث لا يقطع علي يومي كل لحظة، لكنه يبقى هناك مثل جمر هادئ تحت الرماد.

وفي هذه الفترة، أصبح الليل أقرب إلي من كل الناس. كنت أجلس وحيدًا، وأشعر أن الليل وحده يفهم تلك الأشياء التي لا تقولها في النهار. النهار يطلب منك الوضوح، والعمل، والترتيب. أما الليل، فيقبل منك ارتباكك، ويتركك تبكي من غير دموع، ويتفهم كيف يمكن لقلب واحد أن يجمع كل هذه المتضادات: الحب والعتب، السكينة والفوضى، الرغبة والاستسلام، الحنين والكرامة، الأمل اليائس، واليأس الذي لا يخلو من الأمل.

أكثر ما كان يربكني أنني لم أعد أعرف ماذا أريد. هل أريد أن أراكِ مرة أخرى أم أخاف من ذلك؟ هل أريد أن ينفتح بيننا حديث متأخر أم أعرف مسبقًا أنه لن يصلح شيئًا؟ هل كنت أريد العودة أم فقط كنت أريد تفسيرًا؟ و الحقيقة أن بعض القلوب لا تريد العودة بقدر ما تريد المعنى. تريد أن تفهم لماذا أصبحت الأمور الي هذا المصير، ولماذا لم تنقذها المحبة مع أنها كانت صادقة الي هذا الحد.

وفي ليلة مطيرة، وكنت دائمًا أضعف في المطر، فتحت ذلك الدفتر مرة أخرى وقررت أن أكتب. لا رسالة ترسل، بل رسالة تبقى. رسالة لا تخاطبكِ تمامًا بقدر ما تخاطب ذلك الجزء مني الذي توقف عندكِ.

كتبت:

كنتِ أول ما جعلني أصدق أن الروح يمكن أن تجد روحًا تشبهها، وأول ما جعلني أخاف أن كل ما يشبهنا بشدة قد يكون قادرًا أيضًا على كسرنا بشدة. معكِ عرفت أجمل ما في الحب، وأعنف ما في الفقد. وعرفت أن الإنسان قد يجد نفسه في شخص، ثم يقضي عمرًا كاملًا يحاول أن يفهم كيف أضاعها هناك.

كتبت:

لم تكن خسارتكِ فقط خسارة من أحب، بل خسارة اللغة التي كنت أفهم بها العالم. بعدكِ، أصبح كل شيء قابلًا للشرح، لكن قليلًا منه فقط كان قابلًا للشعور.

كتبت:

أنا لا أريد منكِ شيئًا الآن، لا وعدًا، ولا رجوعًا، ولا حتى اعتذارًا. أنا فقط أريد أن أعترف أنكِ كنتِ الحقيقة الأكثر رقة، والأكثر قسوة، في عمري كله.

ثم توقفت، ونظرت الي ما كتبت، وأحسست بشيء من الراحة. ليس لأن الكلام شفى شيئًا، بل لأنه على الأقل أعطى للوجع اسمًا.

منذ ذلك الوقت، صرت أفهم الكتابة بشكل آخر. لم تعد عندي مجرد حروف، بل أصبحت طريقة لالتقاط ما يتسرب من القلب قبل أن يضيع في العتمة. كنت أكتب عنكِ من غير أن أسميكِ، وعن نفسي من غير أن أشرحني، وعن الحب كما لو أنه بلاد بعيدة عشت فيها زمنًا ثم نفيت منها.

وكان الذين يقرؤون لي يقولون إن في النصوص حزنًا جميلًا. وكنت أبتسم في سري لأنهم لم يعرفوا أن الجمال الذي يرونه خرج من مكان مكسور جدًا.

وفي يوم آخر، وبلا مقدمات، وصلني خبر عنكِ. ليس منكِ، بل من شخص يعرف شخصًا: تزوجتِ. هكذا ببساطة، جملة واحدة قالها العالم ثم مضى.

جلست طويلًا بعدها، لا أبكي ولا أضحك ولا أشعر بشيء واضح. كنت فقط أنظر الي الفراغ كما لو أنني أحاول أن أرى كيف يمكن لجملة صغيرة أن تحمل كل هذا الثقل.

كنت أعرف أن هذا ممكن، بل متوقع، والحياة لا تقف عند أحد. لكن المعرفة شيء، ووقوع الحقيقة في القلب شيء آخر. يومها، شعرت أن جزءًا أخيرًا من الوهم قد خرج من روحي، ببطء وبقسوة.

لم أغضب، ولم أكرهكِ، ولم أحسد الذي أصبح بقربكِ. فالمحبة الصادقة حين تتعب جدًا لا يبقى فيها مكان للكراهية. يبقى فيها فقط حزن نقي، حزن يعرف أن ما تمناه القلب قد أصبح مستحيلًا على نحو نهائي.

وفي الليلة نفسها، خرجت أمشي تحت السماء بلا وجهة. وكان الهواء باردًا،

والمدينة شبه نائمة، وأشجار الطريق ساكنة على نحو يضاعف الشعور بـ الوحدة.

مشيت طويلًا، ثم رفعت عيني الي السماء. وللمرة الأولى منذ زمن، لم أطلب عودتكِ، بل طلبت لنفسي سعة تكفي كي أحمل الحقيقة كما هي، من غير مقاومة ولا انكسار إضافي.

وفي تلك الليلة أيضًا، فهمت شيئًا أخيرًا: أن بعض الحب حين لا يكون لنا في الدنيا لا يتحول بالضرورة الي عداوة ولا يفسد، بل يصير دعاءً بعيدًا، ورحمة خفية، وذكرى لا نلمسها إلا بأطراف الروح حتى لا تنزف.

بعد ذلك، تغير كل شيء مرة أخرى، لكن على نحو أكثر هدوءًا. لم تختفي، ولم يختفِ أثركِ. لكن العلاقة الداخلية بكِ أصبحت أقل اشتعالًا، وأكثر شبهًا بحزن ناضج. حزن يجلس الي جوارك ولا يطعنكِ في كل لحظة. حزن أصبح جزءًا من نسيجكِ لا عدوًا لكِ.

صرت أراكِ في ذاكرتي كما يرى الإنسان مدينة قديمة أحبها يومًا ثم ابتعد عنها. يعرف أنه لن يعود إليها، لكنه لا يستطيع ولا يريد أن ينكر جمالها.

وفي أعوام لاحقة، صرت أنا أيضًا شخصًا آخر: أكثر هدوءًا، وأقل دهشة. لكن في مكان خفي من قلبي، كان ما زال هناك ذلك الشاب القديم الذي وقف أمامكِ مرة وظن أن الحب إذا كان صادقًا يكفي.

وكلما كبرت، كنت أحن إليه. لا لأنه كان أسعد، بل لأنه كان أبسط. كان يؤمن، وكان هذا الإيمان نفسه نوعًا من النعمة، حتى لو انتهى الي هذا كله.

وفي آخر الأمر، أدركت أنكِ لم تكوني فقط امرأة أحببتها، بل كنتِ المرحلة التي انتقلت فيها روحي من البراءة الي المعرفة، ومن الحلم الي الفهم، ومن الخفة الي العمق. ولهذا، لم يكن ممكنًا لي أن أخرج منكِ كما يخرج المسافر من مدينة عابرة. كنتِ مدينة كاملة أقمت فيها عمرًا، ثم حملت شوارعها معكِ في كل مكان ذهبت إليه بعد ذلك.

وإذا سألني أحدهم اليوم: هل شفيت؟ فلن أقول نعم، ولن أقول لا. سأقول فقط: تعلمت كيف أعيش بسلام مع ما لا يلتئم تمامًا. وهذه أيضًا طريقة من طرق النجاة.

أما أنتِ، فما عدت أنتظركِ، لكنني لا أنكر أنكِ تسكنينني. وما عدت أحلم

بعودة، لكنني لا أنكر أن في روحي مكانًا مر عليكِ ولم يبرحكِ تمامًا.

وهكذا، مضت الرواية، لا على هيئة فصول واضحة، بل على هيئة مواسم داخلية: موسم للفقد، وموسم للإنكار، وموسم للقاء العابر، وموسم للمعرفة المتأخرة. ثم موسم طويل جدًا تعلمت فيه أن بعض الأشياء لا نستردها، لكننا نسترد أنفسنا بعدها، بصعوبة وبطء، وبقلب لم يعد كما كان، لكنه أصبح أعمق

وفي آخر الليل، حين يهدأ كل شيء، أجدني أحيانًا أقول في سري: لم تكن حكاية ناقصة كما يظن الناس. كانت حكاية كاملة في شعورها، ناقصة فقط في الحياة. ولهذا بقيت، ولهذا أوجعت، ولهذا أيضًا ظلت جميلة على نحو لا أستطيع أن أكرهه.

لأن أجمل ما يكسره الحب فينا أنه يتركنا أكثر إنسانية، وأقل غرورًا، وأصدق مع هشاشتنا، وأشد فهمًا لتلك القلوب التي تبتسم في النهار وتجلس في الليل تعد ما تبقى منها بصمت.

مرت سنوات بعد ذلك، سنوات لا تحصى بالأحداث الكبيرة، بل بالتحولات الصامتة التي لا ينتبه إليها أحد سوى الروح حين تراجع نفسها في آخر الليل. مرت كما تمر المواسم على المدن القديمة: في الظاهر يتبدل الطقس فقط، وفي العمق يتغير شكل الجدران، ورائحة الخشب، وصوت الأبواب عند الفتح والإغلاق. كنت أظن في البداية أن الزمن إذا طال بما فيه الكفاية فإنه يطفئ الأشياء كلها، أو على الأقل يجعلها خافتة الي الحد الذي لا تعود فيه قادرة على المساس بنا. لكنني اكتشفت مع الوقت أن الزمن لا يطفئ كل شيء، هو فقط يعيد ترتيب النار، يجعل اللهب جمرًا، والصراخ صمتًا، و الفوضى حكمة متعبة. ثم يتركك تتوهم أنك نجوت، في حين أنك فقط تعلمت كيف تمشي وفي داخلك حريق مطوي بعناية.

كبرت، لا أقصد في العمر وحده، بل في النظر، في الخيبة، في فهمي للناس، في فهمي لنفسي. أصبح لي صوت أهدأ، وخطوات أبطأ، ونظرة أكثر اتساعًا لـ لأشياء. لم أعد أندفع كما كنت، ولم أعد أصدق كل ما يلمع في البدايات. لكنني أيضًا لم أعد قادرًا على الحماسة القديمة، تلك التي كانت تجعلني أدخل الحياة بقلب مكشوف، كما لو أن العالم بيت، وكما لو أن المحبة وحدها كافية لأن تحرس من فيه. تعلمت أشياء كثيرة في غيابكِ، تعلمت كيف أجلس مع نفسي من غير خوف، وكيف أواجه الأمسيات الطويلة من غير أن

أهرب منها بالضجيج. تعلمت كيف أصغي للناس، لذلك الحزن الصغير المختبئ في كلامهم، للكسور التي لا تظهر في أول النظر. تعلمت أن البشر جميعًا يحملون شيئًا لا يقولونه، وأن أكثر من يبتسم قد يكون أكثرهم تعبًا، وأن أكثر من يبدو مطمئنًا قد يكون فقط أتقن كيف يخفي ارتجاف روحه. وكان في كل هذا التعلم شيء منكِ، شيء لا يشبه حضوركِ القديم ولا غيابكِ القديم، بل يشبه الأثر البعيد الذي يظل يعيد تشكيل الإنسان حتى بعد أن ينتهي الحدث الذي صنعه. كنت قد ابتعدت عنكِ بما يكفي كي لا يوجعني اسمكِ كلما مر، لكنني لم أبتعد عن المعنى الذي تركته في داخلي. ولعل هذا هو أصعب أنواع البقاء: أن لا يبقى الشخص كما كان، لكن يبقى ما فعله بنا واضحًا، صامتًا، وعميقًا الي الحد الذي يصير معه جزءًا من تكويننا. في تلك السنوات، حدثت أمور كثيرة، أحداث صغيرة وكبيرة. تعرفت الي وجوه.

دخلت أماكن جديدة، وغادرت أماكن كنت أظنني سأبقى فيها طويلًا. عرفت نجاحًا عابرًا، وتعبًا مقيمًا. وعرفت كيف يفرح الإنسان بأمر، وفي قلبه مساحة لا تشارك الفرح تمامًا. فليس كل من يبدو سعيدًا يكون سعيدًا على الصورة التي يراها الناس. أحيانًا، يكون الإنسان فقط قادرًا على أداء الحياة بصورة جيدة. وكان هذا ما صرت أجيده مع الأيام: أداء الحياة، القيام بما ينبغي، الكلام حين يجب الكلام، الصمت حين يكون الصمت أقل خسارة. المضي في الطريق، لا بحماسة البدايات، بل بانضباط الذين يعرفون أن التوقف ليس خيارًا دائمًا، وأن القلب مهما أثقله الفقد مطالب بأن يواصل الخفقان وكأن شيئًا لم يكن.

في بعض الليالي، كنت أجلس وحدي، وأشعر أن المسافة بيني وبين ذلك الشاب القديم الذي عرفكِ أول مرة أصبحت بعيدة، حتى ليكاد يبدو لي شخصًا آخر. لكنني كلما نظرت إليه في الذاكرة، أحسست نحوه بشفقة غريبة. لم أعد أغضب من سذاجته، ولا من اندفاعه، ولا من الطريق الذي مضى فيه وهو يظن أن القلوب إذا صدقت كفاها صدقها كي تنجو. بل صرت أحبه على طريقته، لأنه أحب بصدق، ولأنه دفع ثمن صدقه كاملًا، ثم لم يتحول الي حجر. كنت أقول في نفسي: ربما كان هذا هو الانتصار الوحيد الممكن، ألا يتحول الإنسان بعد الخسارة الي قسوة دائمة، ألا يغلق أبواب روحه كلها. فبعض الناس حين تنكسر قلوبهم لا يتعلمون الحكمة، بل يتعلمون التبلد. وأنا، رغم كل شيء، لم أرد أن أكون واحدًا منهم. تعبت، نعم، وشخت من الداخل قبل أواني أحيانًا. لكن شيئًا ما ظل يقاوم في صدري،

شيئًا يرفض أن يصدق أن النجاة تعني أن نصير بلا إحساس. ولهذا، بقيت أكتب، ليس عنكِ وحدكِ، ولا عن نفسي وحدي، بل عن ذلك المكان الغامض بين الاثنين، حيث يسكن الحب حين لا يكتمل، ويجلس الحنين حين يعرف أنه لا جدوى من الصراخ. كنت أكتب عن الناس، عن الطرقات، عن المدن التي تشبه الفقد، عن الشتاء، عن النوافذ، عن الوجوه التي تصادفنا ثم تمضي. لكن الذين يقرؤون كانوا دائمًا يشعرون أن في الكتابة شخصًا غائبًا، شخصًا لا يسميه النص، لكنه يدور حوله كما يدور القمر حول ما يجذبه من غير أن يلمسه.

وفي مرحلة ما، توقفت عن مقاومة هذا كله. لم أعد أحاول إقناع نفسي بـ النسيان، ولا بالتجاوز، ولا بتلك الكلمات الكبيرة التي يقولها الناس ليخففوا عن أنفسهم ثقل الحقيقة. فهمت أن بعض الأشياء لا تحتاج أن نهزمها، بل تحتاج أن نفهمها. وأن بعض الندوب لا نزيلها، بل نعيش معها حتى تصير جزءًا من جلدنا. ثم جاء ذلك اليوم، من غير موعد، كما جاءت أغلب الأشياء المصيرية في عمري. في مكان هادئ هذه المرة، لا شارع مزدحم ولا صدمة عابرة، بل مساء مائل الي السكون، في مدينة كنت أمر بها لأكثر من سبب، ولم يخطر لي أبدًا أنها ستمنحني هذا اللقاء الأخير.

كنت خارجًا من مكان هادئ، حديقة واسعة على طرف المدينة. الأشجار فيها قديمة، والهواء خفيف، والعابرون قليلون. وكان الضوء يميل الي الذبول الجميل، ذلك الضوء الذي يجعل الأشياء كلها تبدو أصدق مما هي عليه في وضح النهار، وربما أكثر رحمة. رأيتكِ من بعيد هذه المرة، قبل أن تريني. وكان في المشهد كله شيء غريب من الطمأنينة. لم يضربني الارتباك القديم بالعنف نفسه، ولم تتعثر روحي كما تعثرت في المرة السابقة، بل شعرت بشيء آخر، شيء يشبه الاعتراف الهادئ: ها نحن ذا، بعد كل هذه السنوات، وبعد كل ما مشى بنا بعيدًا، نلتقي مرة أخرى، لكن لا كما كنا، ولا كما حلمنا، بل كما صرنا. كنتِ تمشين ببطء، ووجهكِ يحمل تلك الملامح التي تمنحها الحياة لمن عبروا كثيرًا. لم تكوني حزينة، لكن فيكِ عمقًا لم يكن هناك من قبل، عمق يشبه ظلًا خفيفًا على ماء صافٍ، لا يفسده، بل يمنحه شيئًا من الوقار. وكان في مشيتكِ هدوء لا يشبه هدوء المنتصرين، ولا هدوء المنكسرين، بل هدوء من فهم وقبل ومضى. وحين اقتربتِ ورفعتِ عينيكِ، كان في النظرة هذه المرة شيء مختلف تمامًا. لم تكن مفاجأة، بل معرفة. لم تكن رجفة، بل تذكر عميق. ولم تكن ابتسامتكِ تلك الابتسامة الرمادية

القديمة، بل ابتسامة أخف، أكثر صدقًا، وأقل خوفًا.

تبادلنا السلام ببساطة شديدة، كأن الزمن نفسه وقف قليلًا ليتيح لنا هذه المسافة النظيفة من الكلام. ثم جلسنا على مقعد خشبي قريب. لا أدري كيف حدث ذلك بهذه السهولة، ربما لأن العمر، بعد أن يطول بما يكفي، يكف عن تعقيد الأشياء، أو ربما لأنه يعلمنا أخيرًا أن بعض اللقاءات لا تحتمل المراوغة. جلسنا، وكان بيننا ذلك الصمت الذي لا يكون فراغًا، بل تاريخًا مكثفًا. ثم بدأ الحديث، حديثًا بسيطًا في ظاهره، عن السنوات، عن المدن، عن الطريق، عن الصحة، عن الشغل، عن الأيام التي تشبه بعضها، وعن تلك التي تترك ندبة لا ترى. وكان واضحًا أننا لا نتحاشى شيئًا، لكننا أيضًا لا نستعجل شيئًا. للمرة الأولى، لم أشعر بحاجة الي التمثيل. لم أرد أن أبدو أقوى، ولا أكثر تجاوزًا، ولا أكثر حصافة مما أنا عليه. كنت جالسًا أمامكِ، لا كمن يطلب شيئًا، ولا كمن يحاكم ما فات، بل كمن ينظر أخيرًا الي جزء عزيز من حياته ويقول له في سره: لقد أوجعتني، لكنني لم أعد أخاف منكِ. وسألتكِ عنكِ، لا بالسؤال المهذب الفارغ الذي يقال في الطرقات، بل بسؤال حقيقي: كيف مضت بكِ الحياة؟ ونظرتِ إلي طويلًا، ثم قلتِ: مضت، وأحيانًا كنت أظنها لا تمضي، لكنها كانت تفعل. فهمت من نبرتكِ أشياء كثيرة. فهمت أنكِ أيضًا لم تكوني خارج هذا كله تمامًا، وأن السنوات، على ما فيها من انشغال، لا تمحو كل شيء. هي فقط تعلمنا كيف نضع الأشياء في أماكن أبعد قليلًا عن الواجهة. قلت لكِ: كنت أظن أن الوقت سيجعلنا غرباء تمامًا. فابتسمتِ وقلتِ: بعض الناس لا يصيرون غرباء مهما طال الغياب، يصيرون فقط أبعد من أن نصل إليهم، وأقرب من أن ننساهم. وكانت هذه الجملة وحدها كافية لتفتح في صدري كل الأبواب المغلقة، لكنها لم تؤلمني، بل شرحتني.

تحدثنا طويلًا، لا أعرف كم مضى من الوقت، لكنني أذكر أن الشمس كانت قد أوشكت على الغروب، وأن الضوء فوق الأشجار أصبح أكثر ميلًا الي الذهب الخافت. وأذكر أن الحديث، في لحظة ما، اقترب أخيرًا من المنطقة التي ظل يدور حولها منذ البداية. قلت لكِ: هل تساءلتِ يومًا ماذا كان يمكن أن يحدث لو أننا كنا أقل خوفًا؟ لم تجيبي مباشرة. خفضتِ عينيكِ قليلًا، ثم قلتِ: كثيرًا، لكنني مع الوقت فهمت أن هذا السؤال لا يفتح بابًا، بل يفتح جرحًا. ولم أعد أملك رغبة في إعادة ترتيب الماضي، لأني لو فعلت لضاعت مني الحياة التي عشتها، وضاع مني السلام القليل الذي تعلمته. كان جوابكِ

ناضجًا، حزينًا، وصادقًا الي حد موجع. وأحببته رغم أنه أغلق على وهم قديم آخر باب. لأنني في تلك اللحظة فهمت أن اللقاء الأخير ليس الذي يعيدنا الي ما كنا، بل الذي يسحب من قلبنا آخر الأشواك ويتركه ينزف مرة واحدة ثم يهدأ. قلت لكِ بعد صمت: كنت غاضبًا زمنًا، لا منكِ فقط، بل من كل شيء: من الصمت، من التوقيت، من الظروف، من نفسي، لأني شعرت أنني أضعت عمرًا كاملًا. فقلتِ بهدوء: كلنا نظن ذلك حين نخسر ما أحببنا، ثم نكتشف بعد زمن أن الذي ضاع لم يكن العمر كله، بل صورة العمر الذي كنا نتمناه. أما العمر الحقيقي، فهو الذي حدث رغم كل شيء، والذي جعلنا ما نحن عليه الآن. كانت كلماتكِ تشبه يدًا خفيفة تمر على جرح قديم، لا لتلغيه، بل لتعترف به. وكان هذا الاعتراف نفسه شيئًا لم أعرف من قبل كم كنت أحتاجه. ثم جاء ذلك السؤال الذي ظل معلقًا في داخلي لسنوات: هل كنتِ تحبينني حقًا؟ سؤال يبدو متأخرًا، زائدًا عن حاجته، لكن بعض الأسئلة لا تموت. هي فقط تنتظر اللحظة التي لا يعود فيها جوابها خطرًا. نظرت إليكِ، ولم أقل السؤال بصوتي كله، كان نصفه في عيني ونصفه في الصمت. لكن يبدو أنكِ فهمتِه، لأنكِ قلتِ بعد لحظة طويلة: بلى، وكنت أعرف منذ وقت مبكر أن ما كان بيننا ليس عابرًا، لكنني أيضًا كنت أعرف أنني لا أملك الشجاعة الكافية كي أخوض معكِ ما كان يحتاجه ذلك الحب. لا أدري ما الذي هزني أكثر: اعترافكِ، أم هدوءكِ في قوله، أم تلك الحقيقة البسيطة القاسية أن الحب أحيانًا يكون موجودًا بوضوح، لكن الشجاعة لا تكون موجودة بالمقدار نفسه. وكم من حياة كاملة ضاعت في المسافة بين الشعور والقدرة. قلت لكِ: كنت أتمنى لو قلتِ هذا من قبل. فابتسمتِ ابتسامة فيها شيء من الأسى الجميل، وقلتِ: أنا أيضًا، لكن من قال إن الأمنيات المتأخرة خلقت لتنجز؟ ربما خلقت فقط كي نعرف أننا كنا بشرًا، وأننا أخطأنا، لا لأن الحب كان ناقصًا، بل لأننا كنا كذلك.

ساد صمت طويل بعد ذلك، صمت لم يكن ثقيلًا، بل كان أشبه ببحر هادئ بعد عاصفة قديمة. وفي ذلك الصمت، شعرت للمرة الأولى منذ سنين أنني لا أريد شيئًا منكِ: لا وعدًا، لا عودة، لا تفسيرًا إضافيًا، ولا حتى تعويضًا رمزيًا عن كل الذي فات. كنت فقط أريد أن أجلس في هذه اللحظة كما هي، وأن أتركها تمر في روحي كاملة، من غير مقاومة، من غير لهفة، من غير خوف من نهايتها. سألتكِ بعدها: هل أنتِ سعيدة؟ ولم يكن سؤالي فضوليًا، بل كان دعاءً مقنعًا في هيئة سؤال. فقلتِ: تعلمت أن أكون، ليس بالمعنى اللامع الذي كنا نحلم به، لكن بالمعنى العميق الهادئ. تعلمت أن للسعادة أشكالًا أكثر

تواضعًا، وأن السلام ليس أن نحصل على كل ما أردناه، بل أن نتوقف عن محاربة ما حدث. ثم سألتني السؤال نفسه. وقلت: لا أعرف إن كنت سعيدًا، لكنني صرت أصالح أيامي أكثر، ولم أعد أخاصمها كما كنت. وهززتِ رأسكِ، كأنكِ تفهمين تمامًا.

بدأ المساء يثقل على المكان، وأصبحت الأشجار أكثر عتمة، والضوء أقل. وعرفت في داخلي أن هذه هي اللحظة التي كان العمر كله يقود إليها. لا اللقاء الأول، ولا الفراق، ولا المصادفة القديمة في الشارع، بل هذا الجلوس الهادئ بين شخصين أحبا، ولم يكتمل لهما ما أحبا، ثم التقيا بعد أن تعبا بما يكفي لكي يقولا الحقيقة من غير صراخ. وقفت أولًا، ثم وقفتِ أنتِ. وبقي بيننا ذلك التردد الخفيف الذي يسبق الوداع. لكن الوداع هذه المرة لم يكن كسابقه. لم يكن اقتطاعًا من الروح، ولا سقوطًا في هاوية، بل كان أشبه بوضع كتاب عزيز على رف قريب، بعد أن تقرأه للمرة الأخيرة، وأن تعرف أنك لن تفتحه ثانية، ليس لأنك كرهته، بل لأنك أخيرًا فهمته. قلت لكِ: كنتِ جزءًا من أجمل ما حدث لي وأصعبه. فقلتِ: وأنت كذلك. ثم أضفتِ بعد لحظة: لكنني لم أعد أخاف من ذكر ذلك، ولا من حمله. وكان في هذه الجملة خلاص كامل. صافحتكِ، وكانت يدكِ دافئة وحقيقية وبشرية، بالمقدار الذي يجعل كل الأوهام القديمة تنسحب بهدوء. فهذا ما يفعله اللقاء الأخير أحيانًا: يعيد الأشخاص الي حجمهم الإنساني، بعد أن ظلوا في ذاكرتنا سنوات أكبر من الحياة وأكبر من الفهم. مضيتِ، ومضيت أنا. كل منا في جهة. لكنني هذه المرة لم أشعر أن شيئًا مني بقي هناك: على المقعد، أو عند الشجرة، أو في تلك الممرات الهادئة. بل شعرت بشيء لم أعهده من قبل، كأن روحي التي تأخرت عني سنوات قررت أخيرًا أن تلحق بي. مشيت طويلًا بعدكِ، لا هربًا، بل احتفالًا صامتًا بشيء لا اسم دقيقًا له. لم أكن فرحًا، ولم أكن حزينًا. كنت في منطقة أخرى، أوسع من التصنيفين. منطقة تشبه السلام حين يأتي متأخرًا، لكنه يأتي أخيرًا. وفي تلك الليلة، عدت الي غرفتي، وجلست قرب النافذة نفسها التي جلست قربها قبل سنوات يوم اللقاء السابق. لكن ما بين الليلتين كان عمرًا كاملًا. في الأولى، جلست وأنا أحمل فقدًا متجددًا. أما الآن، فجلست وأنا أحمل اعتراقًا كاملًا. والفرق بينهما هو الفرق بين من ينزف، ومن يرى الجرح بوضوح ثم يغسله ويتركه للهواء. لم أفتح الدفتر هذه المرة، ولم أكتب اسمنا المشترك "فان". ولم أشعر بحاجة الي رسالة، لأن كل شيء قيل أخيرًا، ليس بالعبارات التي حلمت بها قديمًا، ولا بالمشهد.

أن بعضَ التجاربِ لا تأتي لتبقى في حياتنا، بل لتبقى فينا.

فإن وجدتَ نفسَك هنا، بين سطرٍ وآخر، أو رأيتَ ملامحَك في هذا الحنين، أو سمعتَ في الكلماتِ صدى خسارةٍ قديمة، لم تتعلم بعدُ كيف تُسميها،

فاعلم أن هذه الروايةَ كُتبت لك أيضًا،

لكل قلب عرف الحب ذات صدق، ثم عرفَ كيف يكمل عمره بشيءٍ من الكرامة، وكثيرٍ من الحنين.

أسامة قائد عبدالله